



مُحمَّد السالمي

أهمية تحقيق التراث

إن إحياء التراث علمية وقومية وإنسانية لكل أمة، وإن الاهتمام به ليس بتاريخ قد عفاً عليه الزمان، بقدر ما هو عمل حياتي مستقبلي؛ وبذلك علينا أن نفيد منه في الحاضر والمستقبل. يأتي هنا يوسف بكار في مقالته بعنوان «تحقيق التراث كيف ولماذا؟» في مجلة التسامح ليوضح أهمية تحقيق التراث، وأن إهماله بدعوى «العصرنة» من حادثة وما بعدها، دون فهم حقيقي لهما، سوى عدوى اللحاق بالآخر وتبعيته!



وعلى الرغم من هذا، فثمة من يفترض -بحكم وجوده في الغرب، ومعرفته الوطيدة به- حوارين وهميين يُمتلآن -إلى حد بعيد- ما في أذهان علماء الشرق عن الغرب وبالعكس. ففي حين يتلخص موقف الباحث العربي عموماً في هذا التساؤل: «وما للغرب والدراسات العربية الإسلامية؟»، يرد الباحث الغربي: «إن معظم ما يصدر عن الباحثين العرب والمسلمين، باستثناءات معروفة، مكرّر ومُعاد لا قيمة له من الناحية العلمية، ولا يساهم بإضافة شيء جديد للبحث في الحقل الذي يدرسه؛ لذلك فإن قراءة أعمال هؤلاء الباحثين توشك أن تكون إضاعة للوقت؛ والوقت أثمن من أن يهدر فيما لا كثير جدوى من ورائه». بيد أنه يستتني «منشوراتهم في تحقيق المخطوطات؛ فهذه مفيدة، وهي تضع بين أيدينا النصوص التي تنطلق منها نحن في أبحاثنا. ورغم أن بعض هذه التحقيقات ليست في المستوى المطلوب من ناحية التدقيق أو الطباعة، فإنها لا تفقد قيمتها فقداناً تاماً؛ إذ يظل أسهل علينا أن نرى النص مطبوعاً أمام أعيننا من أن نسافر نطلب له مخطوطاً في مكتبات العالم المتباعدة. وهناك بعض النقاط يجب مراعاتها عند التحقيق؛ مثل: أصالة المخطوطات وما يرتبط بها من مقابلة ودقة وإخراج وعدم الإسراف في الحواشي وخبرة المحقق ومعرفته بموضوع المخطوط الذي يحققه. وهنا ينبه الكاتب على أمور أخرى مهمة، ألا وهي:

المجامع الشعرية أو لكثرة أخطاء المحققين الأوائل ومزالقهم. ومن الأمثلة على إعادة التحقيق: ناصر الدين الأسد؛ حيث قام بإعادة تحقيق ديواني قيس بن الخطيم والحادره. وأيضاً داود القاضي في إعادة تحقيق كتابي أبي حيان التوحيدي «البهائر والذخائر» الذي حققه إبراهيم البكلاش. ثم يذهب الكاتب في نهاية المقال للتعريف بـ«مكملات التحقيق»؛ حيث يؤكد أنه ليس بكاف أن يكتفي المحقق فقط بخدمة النص من حيث توخي الدقة والضبط والشرح والتخريج والتعريف بالأعلام والأماكن التي هي بحاجة إلى تعريف. بل لابد من المكملات أن تجعل المحقق كفواً لمؤلفه؛ فلا ينسى الإتيان بمقدمات وتمهيدات سريعة عن المؤلف وأثره، بل عليه أن يضيف مقدمات وإفهامية عن المؤلفات والدواوين وأصحابها. وكان المرحوم إحسان عباس مثلاً يُحتذى به في هذا المجال، وتعتبر مقدماته الإضافية عن الثريتان عن ابن خلكان وكتابه «وفيات الأعيان» وعن ياقوت و«معجم الأدباء» عملاً من أجل ما حَقَّق من كتب ودواوين.. وفي الختام، أراد الكاتب إيصال رسالة؛ وذلك فيما قاله إحسان عباس، ومفادها: «أن التحقيق العلمي لن يكون مخدولاً ما دامت تتولاه أيد أمينة».

الزائدة التي لا تضيف إلى الكتاب إلا زيادة في أعداد الصفحات، وأنه إذا جردت هذه الحواشي الزائدة، لتضائل حجم الكتاب. وبعد أن قطعنا مسافات طويلة في ميادين التحقيق والإحياء؛ هل نحن في حاجة إلى «حواش» تعرّف بالمعروفين المشهورين من مثل: عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز من أعلام الإسلام؛ وزهير بن أبي سلمى والناطقة الذبياني والبحتري والمنتبي وأبي فراس الحمداني من الشعراء؟ وغيرهم الكثير من مشاهير الإعلام في التاريخ، هل نحن في حاجة حقاً إلى التعريف هؤلاء وأمثالهم من المشهورين المعروفين؟

ثانياً: يأتي الكاتب لإبراز مسألة إعادة تحقيق ما حقق، ويبين يوسف بكار أن ليست هناك حاجة ومسوغات إلى إعادة تحقيق ما نُشر، وأن الإعادة تكون في حالات أهمها:

- أن يكون الأثر لم يحقق تحقيقاً علمياً وفقاً للأصول المتعارف عليها. بل يطاله ما اصطلح عليه بـ«الطبع»؛ حيث إن الكتاب ليس محققاً، وهو المتعارف عليه في الطباعات والنشر التجارية.

- أن تكون مسوغات الإعادة علمية مقبولة تنضوي تحت ما يطلق عليه «التحقيق غير التام». العثور على مخطوطات جديدة أدق وأوفى، أو جمع أشعار غير التي في الدواوين أو